الفصل الثالث

النفوذ السياسي
ليهود مصر

obeikandl.com

obeikandl.com

إذا كانت الطائفة اليهودية فى مصر ، استطاعت أن تحقق نفوذاً وازدهاراً اقتصادياً واسع المدى على الأرض والساحة المصرية ، كما سبق إيضاحه ، فقد ترافق ذلك مع ازدياد النفوذ السياسى لها . وهذا شئ طبيعى ؛ لأن العلاقة بين السياسة والاقتصاد ، هى علاقة وطيدة فى كافة المجتمعات والعصور . كما أن اليهودى بطبيعته وطوال تاريخه ، لا يقنع بالمال فى يديه ، ولكنه دائماً يسعى إلى قصر الحاكم . وهذا ما حدث بالضبط مع اليهود المصريين ، فقد جمعوا الثروات وكدسوا الأموال ، ثم هرولوا إلى قصر الحاكم . ولم يوصد الحاكم أبواب قصره فى وجوههم بل قربهم منه . وأنعم عليهم برتب « الباشوية » و « والباكوية » ، فحصل على لقب الباشوية «يوسف قطاوى» ، و«موسى قطاوى» ، و«فيكتور هرارى» ، و«مزراحى» ، و«بلوم» . بينما حصل على لقب بك العديد من الأسماء منهم «يعقوب قطاوى» ، و«أدولف واصلان» و«ربنية قطاوى» ، و«مراد فرج ليشع» ، و«جوزيف دى بتشيوتو» ، و«سلفاتور شيكوريل» ، و«كليمان شملا» ، و«مارك بيبولوس» ، و«جوزيف وموسى ديشى» ، و«أبرام عادة» ، و«رودلف شالوم»[1] . وهذه الأسماء والألقاب توضح مدى العلاقات الوثيقة والمميزة مع الحكام فى مصر من أبناء الأسرة العلوية سواء كان الواحد منهم خديوى أو ملك . وبالطبع هناك دوافع نفسية لدى اليهودى تجعله يقترب من الحاكم ، فقد ترسخت فى الوعى اليهودى ، عبر التاريخ ، مشاعر الإحساس بالضعف والعزلة والخوف والشك ، وأنهم بحاجة دائماً إلى قوة تحميهم ، وتذود عنهم ، بعد ما تخلى الرب عنهم ، وتركهم يعانون « قدر اليهودى » اللعن والكرهية والشتات . وهذه الدوافع النفسية يتم ترجمتها دائماً إلى سلوك سياسى وسياسات عامة ، فمن أهم ملامح سياسة اليهود دائماً هى « التحالف مع الأقوياء » فالصهيونية تحالفت مع بريطانيا والدول الأوروبية من أجل تنفيذ

(1) على ، مصدر سبق ذكره ، ص١٦٩ .

مشروعها على أرض فلسطين ، وعندما انتقلت قيادة العالم إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية ، تحالفت إسرائيل معها فى صراعها مع العرب منذ قيامها وحتى الآن . ومن هنا ، جاء حرص أبناء العائلات اليهودية فى مصر على توثيق علاقاتهم بأصحاب النفوذ السياسى ، كأمر له مبرراته ، وفى نفس الوقت ، هناك نسق اجتماعى ليس فيه حساسيات أو تعقيدات أو عدائيات . ومن هنا فليس هناك معوقات من أى نوع تجاه الصعود الاجتماعى ، وتم حصول هؤلاء القوم على كافة الحقوق المدنية . وأيضاً تضافرت ثلاثة عوامل رئيسية فى السياق التاريخى لتلك الفترة لتعطى قوة دفع لطلب النفوذ السياسى خصوصاً أن العرض سهلاً وميسوراً . وإذا كان السعر يتحدد بناء على العرض والطلب وفقاً للقوانين الاقتصادية ، ولكن فى هذه الحالة السياسية يوجد طلب ويوجد عرض بدون اسعار . وان كان لابد من وجود المال أو الجدارة الاقتصادية كجواز مرور لبوابة السياسة . والعوامل الثلاثة ، التى نوهنا عنها ، هى بروز الصهيونية العالمية على المسرح الدولى منذ عام ١٨٩٧م ، والثانى هو الاحتلال الإنجليزى لمصر والذى وقع عام ١٨٨٢م ، والثالث ، هو اتساع النفوذ الاقتصادى والثراء للطائفة اليهودية المصرية . وإذا عدنا إلى الجذور ، أو الإرهاصات الأولى لهذا النفوذ . نجد أن محمد على ، رغم انه وفر الحماية لليهود بشكل عام ، من غضب المصريين وأسقط عنهم الجزية ، واستعان بهم فى وظائف الدولة[1] . ولكن لم يعرف عنه أنه ، قرب أحداً من اليهود إليه . أما خليفته الخديوى عباس حلمى الأول ، فقد قرب إليه « يعقوب قطاوى » عميد تلك الأسرة اليهودية الشهيرة ، فعينة مديراً لمصلحة « سك العملة » وقد ظل محتفظاً بهذا المنصب ، فى عهد خلفه الخديوى سعيد . وجاء عهد الخديوى إسماعيل ، والذى كان عهداً سعيداً بالنسبة لليهود ، فعين « يعقوب قطاوى » فى وظيفة

(1)د. على شلش ، اليهود والماسون فى مصر ، (القاهرة : كتاب الزهراء ، ١٩٨٦) ، ص ٥٧.

« صراف باشا » أو كبير الصيارفة . وتولى هذا المنصب من بعدة « يعقوب منشة » ومعهما يهود آخرون إلى حاشية القصر . وكانا يشاركان فى بعض الاستقبالات الرسمية للوفود الأجنبية . والأخطر من ذلك ، أن الاثنين أو كل إليها إسماعيل[1]، مسألة المفاوضات مع بيوت المال اليهودية للحصول على القروض التى يحتاجها إسماعيل وبالتالى فان الطريق إلى مستنقع الديون ، الذى ضاع وسقط بسببه الخديوى اللامع الواعد، كان يشرف عليه اثنان من العرابيين ولكنهما يهود. وهكذا تم الانفاق والحصول على القروض من بنوك أو بنهايم و « روتشليد » وكذلك بنك « دييه ديبشار ». أيضاً يجب الإشارة إلى ان التسهيلات التى أعطاها الخديوى لهما ، هى التى ساعدتهما على تأسيس العديد من البنوك ، وشركات التجارة والصرافة . وجاء عهد الخديوى توفيق ، فنسجت عائلات « قطاوى ، وموصيرى » و« هرارى » و« عاداة » علاقات متميزة مع القصر . وتم فى عهد توفيق ، منح لقب بك إلى « يعوب قطاوى » فى عام ١٨٨٠م ، كأول يهودى ينال هذا اللقب .

وجاء عهد الخديوى عباس حلمى الثانى ، فبرز اسم المحامى والصحفى « مراد فرج ليشع » فاصبح محامى « الخاصة الملكية » بالإضافة إلى توليه رئاسة قلم القضايا بأوقاف قصر عابدين . وبعد ذلك ، تم تعيين أول عضو يهودى فى البرلمان المصرى ، وذلك فى عام ١٩١٣م ، وهو « يوسف قطاوى » بمقتضى « القانون النظامى » والذى بموجبه تم تأسيس الجمعية التشريعية ، ويلاحظ أن « يوسف قطاوى » تولى وزارة المالية عدة مرات ، بالإضافة إلى توليه وزارة المواصلات[2]. وإذا انتقلنا إلى عهد الملك فؤاد ، فيمكن القول أن عهد الملك فؤاد ، كان بمثابة العصر الذهبى لليهود. وذلك لعدة اعتبارات أهمها :-

(1)على ، مصدر سبق ذكره ، ص١٦٦.

(2)سلش ، مصدر سبق ذكره ، ص.٦٢.

١ـ الاعتبار الأول

ارتباط « يوسف قطاوى » بصداقة قوية بالملك فؤاد ، وكان حريصاً على إثبات إخلاصه وولائه للملك ، بالإضافة إلى أن زوجته « أليس » أصبحت كبيرة وصيفات الملكة « نازلى » وهى نفس الوظيفة التى شغلتها قبلها « فالنتين رولو » يضاف إلى ذلك ، إصدار الملك مرسوماً ملكياً بتعيين « يوسف قطاوى » عضواً بمجلس الشيوخ فى ٣١ يناير عام ١٩٢٧م . ثم عضواً باللجنة المالية فى مارس من نفس العام ، وفى العام التالى ، أصبح رئيسا لهذه اللجنة ، وأصبح عضواً فى العديد من الوفود الرسمية التى كانت تمثل القطر المصرى . وظل يوسف قطاوى عضواً بمجلس الشيوخ حتى عام ١٩٣٨م .

٢ـ الاعتبار الثانى

الدور الكبير والخطير الذى لعبه « الحاخام » حاييم ناحوم أفندى « رئيس الطائفة اليهودية ، والذى كان مؤهلاً له ، بحكم ما كان يتمتع به من مؤهلات وقدرات خاصة . فقد كان ذكياً ، وعالماً ضليعاً ، ولديه معرفة واسعة باللغات الشرقية .

وكان حاخاماً لاستانبول ، ولديه علاقات واسعة بكل الدوائر السياسية فى ولايات الدولة العثمانية ، وتم استقدامه إلى مصر ليتولى شئون الطائفة اليهودية ، لم تمض شهور على قدوم الرجل إلى مصر ، حتى استطاع أن يقيم علاقات وثيقة بالملك فؤاد ، وصار مستشاراً خاصاً له . كان عام ١٩٢٥م ، تاريخ قدوم الرجل من استانبول وحصل على الجنسية المصرية عام ١٩٢٩م، وثم تقدم خطوة أخرى فصار عضواً بمجلس الشيوخ ، ثم أعقبها بأخرى وأصبح عضواً بمجمع اللغة العربية ، وهكذا استطاع أن يقيم شبكة من العلاقات داخل القصر الملكى وخارجه ، أى أنه

اخترق القصر والنخبة السياسية والفكرية فى الدولة على حد سواء وفى نفس الوقت فقد تعهد الحاخام اليهودى بدعم النشاط الصهيونى خلال مقابلته عام ١٩٢٥م مع حاييم وايزمان الزعيم الصهيونى خلال زيارته لمصر[١].

وبالطبع كانت هناك مجموعة من الظروف الملائمة والمساعدة للحاخام اليهودى فى أداء دوره الخظير منها كما ذكرنا ، أن « يوسف قطاوى » أصبح وزيراً للمالية فى أكثر من وزارة ، وكذلك زوجته ، أصبحت كبيرة وصيفات الملكة « نازلى » فى القصر ومنها أن عدداً من اليهود ، دخلوا لعضوية مجلس النواب ومجلس الشيوخ ومثل « رينيه قطاوى » بك و « دى بتشوتو » بك . أيضا أن يهودياً من جنوب أفريقيا هو « أوزوالد فينى » قام بتأسيس شركة الإعلانات الشرقية ، والتى سيطرت بالكامل على سوق الإعلان الناشئ فى مصر ، وأصبح لها نتيجة لذلك نفوذ على الصحف المصرية الوطنية ،وقد أصدرت هذه الشركة عدد من الصحف الإنجليزية والفريسية منها « الأجبشيان ميل» ، «الأجبشيان جازيت» و «البورصى أجبشيان».

وأخيراً كان هناك فى القصر نفوذ يهودى قوى فإن مدام « سوارس » أصبحت عشيقة للملك فؤاد وهو أمر لاحظة المندوب السامى البريطانى السير بيرسى لورين ، وكتبت عنه أكثر من مرة فى تقاريره إلى لندن[٢].

٣ـ الاعتبار الثالث

عقب صدور وعد بلفور عام ١٩١٧م ، صرح الملك فؤاد : «أن مصر تنظر بعين العطف إلى قضية اليهود ، وتأمل أن يتحقق أملهم، وتعلن حمايتها لهم»[٣]. أيضاً فى عام ١٩٢٩م وعقب أحداث حائط البراق والتى وقعت بين الفلسطينيين واليهود

(1)عبد الظاهر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٥٢.

(2)هيكل ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٥٥.

(3)على ، مصدر سبق ذكره ، ٦٧.

علق عليها الأمير « محمد على » ، ابن الخديو توفيق ،وشقيق الخديوى عباس حلمى الثانى ، وولى عهد المملكة المصرية فيما بعد ، قائلاً : « إذا كانت المشاكل سببها رغبة اليهود فى الوصول إلى حائط المبكى فى القدس ، فعلى المسلمين فى فلسطين ، أن يبيعوا هذا الحائط إلى اليهود ، بمبلغ مائه ألف جنيه ، وبذلك يريحوا أنفسهم ويريحوا إخوانهم اليهود !!»[1] وهنا ، لابد أن تتراقص أمام أى عقل ، علامات التعجب مع علامات الاستفهام فى دائرة من اللا معقول وقد لا يستطيع العقل البارد ، أن تحملها . وينطبق عليها قول الشاعر العربى :

وليال من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

إذا طوينا صفحة الملك فؤاد . وجاء عهد الملك « فاروق » فسنجد أنه سار على درب أبيه ، فاستمرت العلاقات الوطيدة بين الملك والحاخام اليهودى حاييم ناحوم افندى وتكررت لقاءات الحاخام مع رئيس الديوان الملكى بالنيابة حسن يوسف باشا ومع الملك فاروق نفسه وفى إحدى المقابلات بين الملك والحاخام اليهودى فى حضور « حسن يوسف باشاً » حاول الحاخام إقناع الملك الشاب بأحقية اليهود فى القدس فقال : « المسيحيون تركوا القدس وذهبوا إلى روما ، والمسلمون غيروا توجههم إليها وتحولوا إلى مكة ، وأما اليهود فقط بقوا طول العمر يبكون ضياعها». وقد كتب « حسن يوسف » باشا تقريراً عن هذه المقابلة أودع فى سجلات قصر عابدين[2] . وأيضا ، مثل أبيه ، كان للملك « فاروق عشيقات يهوديات ، الأولى « أيرين كيونيللى » ، والثانية « يولندا هامر »[3]. وكانا يعملن بالتنسيق مع الحاخام اليهودى من أجل ترويض صاحب القصر .

(1) محمد حسنين هيكل ، العروش والجيوش – أزمة العروش وصدمة الجيوش – قراءة مفصلة فى يوميات حرب فلسطين ١٩٤٨م ،(القاهرة : دار الشروق ، عام ٢٠٠٠م) ص٦٨.

(2) هيكل ، المفاوضات ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦١ .

(3) المصدر نفسه. الصفحة نفسها .

الحاخام يلجأ إلى الصداقة والإقناع بينما العشيقات يجهزن الفراش والمتعة الحرام . أما باقى العائلات اليهودية ، فكان لهم دور فى خارج القصر . فنادى « السيارات الملكى » مقر سهرات الملك فى القاهرة ومقصد صفوة المجتمع الارستقراطى القاهرى . فكان أبناء العائلات اليهودية : « قطاوى » ، وموصيرى » ، « وعدس » ، و « شيكوريل » ، و « مزراحى » ، يلتقون حول الملك ، ويخسرون له عمداً على موائد القمار ، وفى الإسكندرية يوجد « نادى اليخت الملكى » – أرقى أندية الإسكندرية – وملتقى العائلات اليهودية الشهيرة – صفوة المجتمع السكندرى – مثل عائلات « منشة » ، « رولو » ، و « سوارس » ، و « أجيون » . وهكذا فيما بين القاهرة والإسكندرية وحيثما كانت السهرات وموائد القمار فى نادى السيارات أو نادى اليخت الملكى وسواء كان الملك المسكين داخل القصر أو خارجه . كان هناك شباك منصوبة من بنى إسرائيل وحبائل تم حبكها بأيدى بنى صهيون .